

# المنشآت الصحفية بالمغرب عبر التاريخ

## بمناسبة السنة الدولية للمعاقين

د. عبد الهادي النازي

كلنا يعرف عن التنافس القوي الذي امتد بين الخلافة العباسية في بغداد والخلافة الموحّدية في المغرب ، في اعقاب سحب الموحدين اعترافهم بسيادة العباسيين ، والغاء نكرهم من أعلى منابر المغرب ومن العملية المغربية .

ولقد تجلّت مظاهر ذلك التنافس في شتى الميادين ، واتخذت لها مواقف صراع تختفي آثاره لتظهر مرة أخرى . وقد نقل التاريخ عددا من الاخبار تدلّ جميعها على أن الموحدين في المغرب كانوا يُعدّون العدة لتزعم دولة اسلامية واحدة ، وان العباسيين في المشرق كانوا يرون في الموحدين خطرا على كياناتهم . وقد كان من المعقول جدا ، بالنسبة للمغاربة ، ان يراقبوا مسيرة بغداد ، اذ كانوا يطمحون الى مستويات أفضل وأمثل .

ومن هنا وجدنا أنه ، الى جانب اهتمام المغرب بما يظهر من مذاهب هناك وبما ينسخ من مخطوطات ، كان يُعنى جيدا بكل مظاهر الحضارة التي تصل اصداؤها ، ويبدل غاية جهده ، ليس فقط لتزويد الملكة الخلافية بمثلها ، ولكن ليكون المتفوق المجلى فيها .

وبهذا كان المغرب بين الاستفادة من الغرب عن طريق الاندلس ومن الشرق عن طريق بغداد .

وبهذا نفسر ظهور المدارس المغربية مباشرة بعد المدرسة النظامية ، ونفسر ظهور الكراسي العلمية على اثر ما بلغ عن كراسي المعاهد

البغدادية ، ومن أجل ذلك أيضا سمعنا عن نصب الساعة المائية في  
مراكش وفاس بعد ظهور الساعة المائية بمدرسة المستنصرية . وفي اطار  
ذلك التنافس أيضا شاهدنا انشاء سلسلة البيمارستانات في عدد من  
قواعد المغرب ، وعلى رأسها مدينة مراكش .

( البيمارستان ) كلمة فارسية مركبة من كلمتين : بيمار : تعني  
المريض ، واستان التي تعني مكان ، دار . باك استان : دار الطهر ،  
أفغان استان دار الافغان . ترك استان ارض الترك الخ . . . فمعنى  
بيمارستان : دار المريض .

وإذا كنا لا نتوفر على وصف مدقق لكل تلك المستشفيات، فإن من  
حسن حظنا أن نجد عبد الواحد المراكشي يقدم مستشفى مراكش بهذه  
العبارات :

« وبني يعقوب المنصور في مدينة مراكش بيمارستان ما أظن أن في  
الدنيا مثله ؛ وذلك انه تخير له ساحة فسيحة باعدل موضع في البلد ،  
وأمر البنائين باتقانه على احسن الوجوه ؛ فأتقنوا فيه من النقوش البديعة  
والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح ؛ وأمر أن يفرس فيه مع  
ذلك جميع الاشجار ، والمشمومات والماكولات ؛ وأجرى فيه مياه كثيرة  
تدور على جميع البيوتات ، زيادة على أربع برك ، في وسط أحداها رخام  
أبيض ؛ ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحريز  
والأديم وغيره بما يزيد على الوصف ويأتي فوق النعت ؛ وأجرى له  
ثلاثين ديناراً في كل يوم برسم الطعام ، وما ينفق عليه خاصة ، خارجاً  
عما جلب اليه من الادوية ؛ وأقام فيه من الصيادلة لعمل الاثرية  
والادهان والاكحال ؛ وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز  
الصيف والشتاء . فاذا برىء المريض ، فإن كان فقيراً أمر له عند خروجه

بمال يعيش به ريثما يستقل ، وأن كان غنيا دفع إليه ماله وتركته وسببه ؛ ولم يقصره على الفقراء دون الاغنياء ، بل كل مريض بهراكش من غريب حمل إليه وعولج ، الى أن يستريح او يموت . وكان المنصور في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخل ( البيمارستان ) يعود المرضى ، ويسأل عن اهل بيته يقول : كيف حالكم ؟ كيف القومة عليكم ؟ الى غير ذلك من السؤال ، ثم يخرج . ولم يزل مستمرا على هذا الى أن مات ، رحمه الله . .

تصدت بايراد هذا النص كاملا لانه يُعتَبَر وثيقة من اجمل الوثائق المغربية المعبرة عن قمة ما وصلت اليه العناية بالمصاب .

ثلاثون دينارا يوميا برسم الطعام — قسم للصيدلية لتحضير الاشربة والادهان والاكحال — ثياب ليل على حدة ونهار على حدة . . . في الشتاء والصيف . . . يستوي الفني والفقير في المعالجة ، الخليفة يتفقد المرضى بنفسه . . .

هل يمكن أن نقارن بين هذا المستشفى ومستشفى بغداد الذي تحدث عنه ابن جبير عندما زار العاصمة العباسية عام ٥٨٠ = ١١٨٤ ، اي في نفس السنة التي نصب فيها المنصور الموحدى ؟

لقد تحدث ابن جبير عن بيمارستان بغداد على أنه قصر كبير يزود بماء دجلة ، وانه يحتوي على كل المرافق التي توجد في القصور الملكية .

اني على مثل اليقين أن هذا مظهر بارز من مظاهر التنافس الجاد والحاد بين بلاط بغداد وبلاط مراکش . . . ان المراكشي كان يزن كلامه وزنا عندما قال « انه لا يظن أن في الدنيا مثل مستشفى مراکش » ، مع العلم أن المراكشي يعرف المشرق والشرقيين ، وزار مصر واستقر بالعراق حيث السف كتابه المعجب هناك .

فماذا كان عن الاحتياطات والاسعافات التي تقدم للمرضى ؟ أتصور المريض الذي يرتدي لباسا له في الليل غير اللباس الذي يكون له في النهار ، أتصور بجاتبه (بيانات) تكشف عن تطور علاجه وماذا يتناوله اليوم وغدا . . .

ان الذين يحتاطون للمريض العادي مثل هذا الاحتياط ينبغي ان نتصور عنايتهم بالآخرين الذين قدر لهم ان يصنفوا ضمن مرضى آخرين من نوع ثان .

« لتتصور ان ابايعقوب يوسف ، والد المنصور السالف الذكر ، عندما داهم الوباء عاصمة الموحدين عام ٥٧١ = ١١٧٦ ، فرض نظاما رائعا مأكنا نتصوره لولا ان التاريخ اهتم به . . . » كان الرجل لا يخرج من منزله حتى يكتب اسمه ونسبه ومكانه على ورقة يجعلها في جيبه ، فان مات حمل الى اهله .

إذا كان الاهتمام يصل بالنسبة للقادرين الى هذا الحد ، فكيف نتصور الاهتمام بالنسبة للذين لا يقدرّون على التعبير ؟ للذين لا يستطيعون الاعتماد على انفسهم ؟ للذين يتهددهم الضعف والعوز والخصاص ؟

لقد ورد في ترجمة الوليد بن عبد الملك ، الذي كان من رجاله موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد ، وردت هذه الامادة التي تلخص كل ما يمكن ان يقال عن العناية المثالية السامية بالمعاقين :

« جعل الوليد لكل اعمى قائدا يتقاضى نفقاته من بيت المال ، واقام لكل مقعد خادما » .

وهكذا شاهدنا ان الدولة بمجرد ما تشمر بوجود معاق في البلاد يكون عليها ان تقوم بمبادرتين على الاقل : الاولى تكليف مساعد يكون الى جانب ذلك المعاق ، والثانية : تخصيص مبلغ من المال لذلك المكلف حتى لا يشعر بأنه يتطوع فحسب ، ولكنه موظف يتقاضى أجرة على ما يقوم به . . هذا طبعا الى العمل الثالث الذي يتجلى في ضمان العيش ايضا لذلك المعاق متى كان في حاجة الى ان يعيش كسائر الناس !

هناك حديث شريف يقول : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » . ونحن لا نقف لا قليلا ولا طويلا امام « البنيان » ، أي بنيان كان ، لنعرف تركيبه ومادته . . هل هو كله من أجزء من قياس واحد ، من طينة واحدة ، من طبخ واحد . . ؟ أبدا ، ان فيه الحجرة الكبيرة والصغيرة ، والصحيحة والمكسورة ، ومن ذلك كله يقوم البنيان .

وهذا البنيان مثل حي من امثلة المجتمع الذي يهتم فيه القادرون بالقاصرين .

هذا تفسير صائب سمعته ذات مساء من درس القاه جلالة الملك بنفسه في قناة الدروس الحسنية اواسط رمضان ١٣٨٢ ، اواسط دجنبر . ١٩٦٧ .

المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا . . . ولا نزيد المرصوص لانه ليس بمنصوص .

وهكذا كنا نتصور ان مستشفيات المغرب وبیمارستانات المغرب كانت مزودة ، ليس فقط بما يحتاج اليه من علاج ودواء ، ولكن كذلك بما هو ضروري لسيرها ، من ممرضين ومساعدين وموظفين من شتى الاطر ، كان على رأسهم امثال ابن طفيل ، وابن رشد ، وابن زهر الحفيد . هكذا كان بيمارستان مراكش . . . وهكذا كان كذلك أشباهه في المدن الاخرى .

وقد سلك بنو مرين في هذا الموضوع طريق اسلافهم الموحدين ،  
فاهتموا كذلك بالذين اعانهم الزمان . . . ومن ثمت شاهدناهم يخصصون  
الاقواف الضخمة ، سواء على صعيد الدولة أو صعيد الشعب ، ليوفروا  
لكل الحياة الكريمة الآمنة في كل الميادين المغربية .

سوف لا اطيل هنا بذكر الامثلة الرقيقة الشفافة التي التفتت بنو  
مرين اليها . ولكني لا اغفل اهتمامهم بإنشاء دور للمكفوفين من شأنها أن  
تحميم وترعاهم ولا تضطرهم الى الوقوف على باب واحد .

ان الدولة التي كانت تهتم بعلاج المصابين من الطيور في عنان السماء ،  
لا يمكن أن تترك وسيلة لعلاج الانسان المنكوب الذي يمشي على الارض !!  
لقد عرفت المؤسسات الصحية في عهد بني مرين ترفنا وازدهارا  
تحدثت عنهما المدونات والسجلات بالرغم من الظروف العسبية التي مرت  
بها الدولة في اواخر أيامها . . . هنا دور لرعاية المعاقين والمعاقات  
والمُتَلَمِّين والمُتَلَمَّات . وقد اقتفى السعديون نهج بني مرين ، فشاهدنا  
ببمارستان عبد الله الغالب بالله في مراكش ، على نحو ما شاهدنا العلويين  
يقومون به من اعادة الحياة الى بعض المنشآت المهتدة ، وحرصهم على  
أن ينشئوا من جانبهم اماكن للعلاج . . وصلت أحيانا الى ضواحي المغرب ،  
وعلى نحو ما رأينا في زاوية سيدي علي بو غالب بفاس ، وسيدي  
بنعاشر بسلا . .

لقد كانت الدولة تجعل هذا الموضوع في صدر اهتماماتها ، وكانت  
تكل الاشراف عليه الى ( المحتسب ) الذي يتحرك ويتجول ويراقب  
ويتابع . . . ولأمر ما وجدنا أن محكمته كانت بجانب مستشفى سيدي  
فرج بفاس .

هناك ظاهرة ممتعة تدخل في اطار حياتنا اليومية . . كانت مما اهتم  
به التشريع وبخاصة في بلاد الغرب الاسلامي :

فحتى تعطي الدولة دليلاً للقاصرين على أنهم يتمتعون بكل ما يتمتع به التادرون ، أجازوا لهم أن يباشروا كل أنواع النشاط الاجتماعي . . . مكتفين بلغة الإشارة التي نرى الامم الراقية تتبجح بأنها المبتكرة لها كوسيلة لترفيهه عن المصابين .

ان لغة الإشارة في المغرب كانت معتمدة في كتب الفقه الاسلامي كقاعدة تُبنى عليها الاحكام .

لقد عقد ابن عاصم ، وهو من رجال الفقه الاندلسيين ، فصلاً خاصاً بالتعامل مع الذين يفقدون سمعهم لسبب من الاسباب ، او مع الذين لا ينطقون . . . ومع الذين لا ينظرون . . . وحتى مع من أضحى يفقد الثلاثة ، على نحو ما قرأناه في بداية هذا القرن عن السيدة الامريكية الشهيرة هيلين كيلير ، التي كانت لا تسمع ولا تنطق ولا ترى ، ومع ذلك استطاعت — بفضل العزيمة والعناية — ان تنال ألقاباً اكاڊيمية عليها . . . وأن تؤلف وتكتب .

ذلك الفصل الخاص بالتعامل مع المعاقين يحتاج وحده الى كتاب ، وهو ، أي ابن عاصم — كما يفهم منه — يدعو دعوة صارخة لفكرة تعلم الاشارات ، وعليها يعلّق الاحكام .

فهو يقول : ان العقود بكل انواعها يمكن ان يباشرها اولئك حسب دلالات الاشارة ، وان بإمكان الشهود أن يتلقوا الشهادة من اولئك على نحو ما يتلقونها من السالمين . . . وان الامر بالتالي يعتمد على ان يفهم المعاق وأن يفهم غيره . . .

يقول في تلك الايات الخفيفة :

- ومن اصم ابكم ، العقود \* جائزة ، ويشهد الشهود  
بمقتضى اشارة قد اُهمت \* مقصوده ، وبرضاه اُعلمت  
وإن يكن مع ذلك اعمى امتعا \* لفقده الافهام والفهم معا  
وذو العمى يجوز الابتياح له \* وببعمه وكل عقد اعمله

نرى كيف ان الفقه الاسلامي يحتضن هؤلاء المعاقين ويجد صيغة للتعامل معهم على قدم المساواة .

وتعالوا بنا نستمع الى نوع آخر من العناية بالمصابين — والمؤمن مصاب — كما يقولون :

ان الطفل الخائف قد يتسبب له خوفه في أزمة تلازمة حياته كلها . .  
فحتى يجنبه المجتمع ذلك الخوف وجدنا اوقافا واحباسا تؤدي بمقتضاها  
تعويضات للاطفال الذين كسروا اواني لاوليائهم ، واصبحوا يخافون من  
مواجهة العقاب والعتاب . . . . . فحتى يشعر الطفل براحته ضمنت له  
الاقواف هذه الفرحة .

ان ( الحب كريم ) كما يقولون ، لا يوجد له تعبير خاص ولا يحتاج  
الى تفسير خاص ، ولكنه الحب الذي يجب ان يهيمن على تصرفاتنا وحركاتنا  
ومبادرتنا مهما كان الامر .

اريد من كل هذا الكلام ان اخلص الى القول : انه اذا كانت  
الامم اليوم تقوم بمثل هذه المبادرات الجميلة ، فتخصص عاما من حياتها  
للاهتمام بهذا النوع من الناس ، فان المغاربة بالامس جعلوا من حياتهم  
كلها فرصة للتعبير عن العناية والاهتمام . . . . . ولا شك ان أبناء  
المغرب اليوم سيكونون في مستوى اريحية آبائهم بالامس . . . !

د. عبد الهادي التازي